هبة الله

عقد القلق اتفاقًا مع معدتها وأسنانها فنجحوا في إحداث الوقيعة بينها وبين النوم، تناولت مسكّنًا، وجلست تسامر دميتها التي تبثّها أسرارها وحكاياتها التي لا تنتهي.

_ غدًا محاولة جديدة يا صديقتي ..

أمل جديد في أن تحظى بفرصة عمل تعين بها أمها التي أنفقت سنواتها الخمسين في تربيتها وأخواتها الثلاث، (كاشير) في سوبر ماركت عمل قد يكفيهما سؤال اللئام.

عندما أخبر الطبيبُ الأمَّ أن طفلتها من أصحاب متلازمة داون، لم تفهم المرأة القروية البسيطة ما قصد، لكنها علمت أن الله ابتلاها بطفلة غير طبيعية هذه المرة، حمدت ربها وشكرته، أما الأب الذي يريد وليًّا للعهد، فهجر زوجته وبيته بعد أن رُزِق طفلة رابعة، غير أنها ذات إعاقة لا تحتمل..!

_ اطفئي النور ونامي يا «هبة» سهرتِ كثيرًا يا ابنتي.

أمها هي بطلتها الخارقة، لا تنسى أيام كانت تحملها بين يديها إلى الطبيب الذي دلّها عليه أحد الجيران، ظلت تفعل حتى جفّ المال في يدها.

عندما بلغت عامها السادس التحقت (هبة) بمدرسة دامجة لا يعرف مديرها فرقًا بين تلميذ طبيعي أو غيره، كانت تشعر أنها في عالم غريب يرفضها وترفضه، لا تقوى على المكوث داخل حجرة الدراسة كالبقية، تقضي الوقت لعبًا في الفناء أو في الحديقة تقطّع أزهارها وتلوذ بالفرار عند رؤية مدرس التربية الزراعية الذي ملّ معاقبتها دون جدوى، وقد تجدها في حجرة

المعلمين الذين اعتادوا رؤيتها، فكانوا جميعًا يعرفونها.

رفضها زملاؤها في البداية، لكنهم مع الوقت اعتادوها، اعتادوا إقبالها وإعراضها، هدوءها وثورتها، وجهها المسطح ورأسها الصغير يثير سخريتهم، أما شكل أصابع قدمها المتباعدة فطالما أثار خوفهم، عند اللعب تكون نقطة الخلاف: أي فريق سيقبل بانضمامها إليه؟ في النهاية تجلس (هبة) لحراسة حقائبهم على وعد باللعب، يوفون بوعدهم في آخر خمس دقائق، يتفرق فيها جلّهم عن ساحة اللعب، اكتشفت فيما بعد أنها كانت تنضم بعد انتهاء اللعب، وما هذا إلا وقت إضافي؛ لإرضائها..!

أستاذة (صفاء) -أخصائية النشاط المسرحي- هي فقط من تعلّقت بها وسط هذا الجمع؛ لأنها فهمت عالمها وعانقت صعابه، وساعدت أمها على ذلك، تذهب إلي منزلها ثلاثة أيام في الأسبوع، تعلمت منها ما لم تتعلمه خلال سنوات تسع قضتها في تلك المدرسة التي كان الدمج فيها حجرة، لم تعرف (هبة) طريقها إلا عندما دخلتها ذات يوم مع تلميذين آخرين بصحبة معلم التقط لهم صورًا بهاتفه، وهم يمسكون بعض الأدوات المبعثرة داخل الحجرة..!

بعد زواج أخواتها الثلاث، لم يعد بالبيت سواها وأمها التي باعت آخر قيراط من أرضها لتزفّ آخر بناتها (الصالحات للزواج)، كانت أمها ترفض أن تسمع منها تلك الجملة وتخاصمها كلما قالتها.

_ لننم الآن يا صديقتي، فغدًا ستشهدين هذه المحاولة أيضًا.

****

_ جئت بخصوص هذا الإعلان.

أخذ منها الإعلان، نظر فيه وكأنه يراه لأول مرة، أربكتها نظراته المرتابة الباردة، ثم قال وهو يلقي الإعلان أمامه:

_ لسنا بحاجة إلى موظفين.

_ وهذا الإعلان..؟!

_ قديم، إعلان قديم.

ودعته بابتسامة ساخرة، أطلت دميتها برأسها من الحقيبة تواسيها وتمسح دموعًا لا يراها أحد غيرها، جلست (هبة) على الرصيف تمسح عرق الحر واليأس، تنتظر ضميرًا حيًّا ويدًا.